المقتطف

الجزء الخامس من السنة الرابعة

تشرين الاوّل (اكتوبر) سنة ١٨٧٩

السحر في افريقية

لا حرج ان الخرافات والاوهام حيانها في ظلام الجهل ومماتها في نور العلم اذ التاريخ يشهد باصرح شهادة انهُ حيثما اشرقت شمس العلم على افياء الجهل جلت الحقائق غياهب الاوهام والخرافات. هذه اوربا التي يعترف لها الآن سرًّا وجهرًا طوعًا وقهرًا ببلوغ اسمى ذرى المعارف والترقي الى قمم شوامخ التمدن اضحى السحر فيها اضحوكة يتفكه بذكرها العقلاء وخرافةً لا تجوز على عقول الاطفال مع انها كانت في زمان جهلها اطوع للتصديق بهذه الخرافة من المطيَّة التي ذلَّلها العنان فتنقل وتحرق وتخنق من خانهُ حظهُ فانهم بالسحر وتجرُّ على ابنائها اعظم البلايا وتعذبهم عذابًا ذريعًا ولا يشفق قلبها خوفًا من شرّهِ كما سنبين في غير هذا المكان عند الاقتضاء. وهذه افريقية التي يعترف لها الآن سرًّا وجهرًا طوعًا وقهرًا بانها لم تزل غائصةً في بحر الجهل متورطةً في ورطات التوحش لم تزل عبدة ذليلة تئنُّ تحت جور السحر وتشكو من نوازل السحرة مع انك اذا تأملت البقع المتمدنة فيها كمصر مثلاً رأيت اهلها قد مزقوا ستار السحر الكاذب وجعلوا يضحكون من تلفيق بل من نفاق السحرة والمتنصرين لهم كما جاء حديثًا في جريدة الكوكب المصري بقلم اللبيب البارع احمد افندي فهمي. هذا ولما كانت دولة السحر واصحابهُ لم تزل في ابَّان زهوتها في افريقية احببنا ان نبين بعض عوائد اهل تلك القارة ومضار هذه الخرافة واصحابها حيثما وجدت ووجدوا فنقول

ان دين اهل افريقية اجمالاً مبني على السحر فكما نعتقد نحن ان كل الامور بيد الباري تعالى فهو يحدث كل شيء ويقدر على كل شيء هكذا هم يعتقدون ان السحر يحدث كل شرّ ويقدر على كل شيء. فاذا مرض كبير فيهم قالوا انهُ مرض بالسحر واذا مات شاب منهم قالوا مات بالسحر

وكذا اذا انقطع عنهم المطر وطال عليهم الغيظ او كثرت عليهم الضواري او اصابتهم نازلة من النوازل تسبوا كل ذلك الى قوة السحر فيتهمون بعضهم بعضاً ويتقاتلون ويتذابحون حتى لقد يقتلون بعضهم بعضاً . قال دوشيلو الذي قضى ثماني سنوات سائحاً في النواحي الاستوائية من افريقية ان الذين يموتون في جميع القبائل التي عاشرتها يموت منهم اكثر من خمسة وسبعين في المئة (اكثر من ثلاثة ارباعهم) قتلاً بجريرة السحر الباطلة

ولزيادة الايضاح في ذلك كله اقتطفنا ما باتي من كتاب دوشيلو المذكور وكتاب السائح الشهير الدكتور لفنستون الذي قضى سنين كثيرة في جنوبي افريقية ووسطها وشرقيها

قال دوشيلو واللعنة العظمى على هذه البلاد اعتقاد اهلها بالسحر فهم يعتقدون ان الموت لا يكون الا قسراً ولا يصدقون ان من كان قبل اسبوع او اسبوعين صحيحاً ثم جاءهُ الموت يموت بامر ربهِ بل ان ساحراً سحرهُ . وكنت اذا سألت احدهم أمستعدٌ انت للموت اراهُ يحوّل وجههُ عني ويقول لا لا تكلمني بهذا وبعودُ وجههُ وتتغير حالهُ ويبقى اياماً خائفاً ان يكون قد سحر . واذا خالج عقل احدهم انهُ مسحور تتغير اخلاقهُ كلها فيخشى الغدر من اصدق اصدقائهِ . يخاف الاب من اولادهِ والاولاد من ابيهم والرجل من امرأتهِ والمرأة من رجلها . ويتوهم انهُ مريض ولذلك كثيراً ما يمرض من وهمهِ ويخال نفسهُ تحيطهُ الارواح الشريرة ليلاً ويكثر من حمل العوذ والتمائم ونحوها ويندم للاوثان تقدمات ويحلم اغرب الاحلام اكثرها ان القرية التي هو فيها محصورة . ومتى تعالت هتافة تسري الى اهل القرية كلهم فيزيد خوفهم واضطرابهم حتى يوقعوا التهمة على شخص قليل الحظ لشبهة طفيفة وهمية في الغالب وكثيراً ما يتجاوز هيجانهم الحدود فياخذون في القتل والذبح قبلما يموت احد . وللكهنة هنا المنزلة العليا والكلمة الاولى في مثل هذه الامور فوظيفتهم كشف السحرة الذين سحروا الرجل او القرية ولا مردّ لكلمتهم . اذا قضوا على الساحر المزعوم بالموت قُتل لا محالة واذا قضوا على اهل القرية بالرحيل رحلوا على بكرة ابيهم وتركوا مساكنهم ومزروعاتهم وكل ما لهم واذا قضوا باثارة الحروب والفتن على القبائل اثاروها . ولما كان اعتبار الكهنة متوقفاً على رواج السحر لم يكن من صالحهم اضعافهُ ولذلك قلما يبرّئون المتهمين من التهمة فيذبحون ما لا يحصى من البشر سنوياً . وكهنة السحر هؤلاء هم الذين يستطيعون على شرب جرعات كبيرة من المبوندو ولا يموتون واما المبوندو فهو نقاعة نبات سام يقتل غالباً ومن نجا منهُ نال ثقة الجميع

اما الطريقة التي يكشف الكهنة بها السحرة فموضحة في كلامهِ عن قبيلة الكمّا . قال مرض خادم لي واشرف على الموت فقطعت منهُ الرجاء واما اهلهُ فبعثوا الى كاهن من الكهنة ليشفيهُ يتعزبو لانهم يعتقدون ان المرض عبارة عن دخول الشيطان الى جسد المريض والشيطان لا يخرج الا

بالصراخ والجلبة. ولذلك يحدقون بالمريض من كل جانب ويصرخون ويرقصون ويقرعون الطبول والطاسات ويطلقون البنادق قرب اذنيهِ حتى اذا كانت فيهِ بقية يعجلون عليهِ فلا ينجو من يد الكهنة الاَّ طويل العمر لان الكاهن يلصق بالمريض فلا يفارقهُ الاَّ صحيحًا او ميتًا. فمات خادمي ودفن في قبر قريب القعر فافترسهُ الضواري تلك الليلة. وبات اهلهُ في بيتهم اصبحوا للتفتيش عن الساحر الذي سحرهُ. وبعثوا يطلبون كاهنًا مشهورًا وكان رجلاً محتالاً مكارًا. فلما تمَّ استعدادهُ نزلت لاراهُ فاذا منظرهُ كابليس الرجيم على راسهِ ريش اسود وحول عنقهِ قلادة من القش وحبل معلق بهِ صندوق مدلًّى على صدرهِ يدَّعون انهُ مقدَّس ويتضمن ارواحًا. وعلى صدرهِ قدَّد من جلد النمر وجلود وحوش اخرى كلها مسحورة وفيها عوَذ وتمائم وما اشبهها وجفنناهُ مدهونان بدهان احمر ويمتد من انفهِ الى مفرقهِ خطٌّ احمر يقسم وجههُ قسمين وحول راسهِ خط آخر احمر ووجههُ مدهون بدهان ابيض وعلى كلٍّ من جانبي فمهِ رقعتان حمراوان وعلى كلٍّ من كتفهِ خط ابيض يمتد على طول ذراعهِ واحدى يديهِ مدهونة بدهان ابيض وحول وسطهِ منطقة اجراس صغيرة. وكان جالسًا على صندوق امامهُ صندوق آخر مسحور وعلى هذا الصندوق مرآة بجانبها قرن ثور فيهِ مسحوق اسود يدَّعون ان الارواح تلتئمُ اليهِ وامامهُ ايضًا سلة فيها عظام الاقاعي كان يهزها كثيرًا وهو يهزم وجلود كثيرة فيها اجراس. وكان بالقرب منهُ شخص آخر يقرع بعصوين على لوحة فلما قسَّم وعزَّم وتمتم واعجم كثيرًا واهل القرية كلهم حولهُ قيل لرجل اذكر اسماء اهل القرية ليعرف الكاهن ان كان الساحر منهم. فجعل الرجل يذكر الاسماء والكاهن يتطلع في المرآة كانهُ يريد ان يتحقق هل ينطبق ما يراهُ على المسمَّى. وكنت واقفًا كل ذلك الوقت بجانبهِ حتى تضايق مني فقال لهم اخيرًا ليس احد منكم ساحرًا ولكن فيكم روح شرير فان لم ترحلوا من هنا بيت منكم كثيرون. قال هذا ليلتفتوا مني لعلمهِ اني استوطنت القرية وبنيتُ لي فيها مسكنًا انفقت عليهِ كثيرًا. وفي الغد رحلت القرية باسرها ولم يمسِ المساء حتى بقيت وحدي مع بعض غلماني الذين كانوا يودون الفرار. هذه سطوة الكاهن على اولئك السذَّج وهذا شانهم فانهم يرحلون حالاً على كلمتهِ ولو مهما لقوا في الرحيل من المشقة

اما الطريقة التي يعامل بها المتهمون بالسحر فموضحة في كلامهِ عن اهل قرية كومبي. قال اُخبرت ان صديقًا لي اسمهُ امبومو مريض فذهبت اعودهُ وكانوا قد قضوا الليل حولهُ يضجون لاخراج الشيطان منهُ. فلما رآني قال لي خلصني فاني مشرف على الموت قلت الله يخلصك. فالحَّ عليَّ اقاربهُ بارسال دواء لهُ فقلت لهم هذا الدواء لا ينجع فان عليكم بموت المتَّهم موتهُ اليَّ. فمات ودفن وفي عشية ذلك اليوم سمعتهم يذكرون السحر ثم اتوا بكاهن واستمروا يومين بليلتيهما

يجرون الاعمال التي مرّ ذكرها. ولما شعر الكاهن ان هياجهم قد بلغ اشدّ جمعهم في اليوم الثالث لينهوا المسألة فاحاطوا به مسلحين صغارًا وكبارًا واضطربت القرية كلها اضطرابًا عظيمًا. فناديتهم بان يكفوا عن عملهم فكنت كضارب في حديد بارد مع انهم كانوا يهابونني جدًّا فتهددتهم باني اشكوهم الى شيخهم اذا لم يكفوا فضحكوا مني لانهم استأذنوا منهُ في ذلك خفيةً عني. فلما تحققت عجزي وقفت صامتًا ثم سمعت الكاهن يقول ان امرأة سوداء اوصافها كذا وكذا سحرت امبومو. فما استتمّ كلامهُ حتى هجموا كلهم على فتاة مسكينة هادئة اخت الدليل الذي كان يدلني في اسفاري وجرّوها وهم يهزّون السيوف فوق راسها حتى اتوا بها الى ضفة النهر فربطوها هناك ورجعوا. ولما مرّت بي اختبأتُ وكنت ادعو الى ربي ان لا يريها وجهي ولكني سمعتها تنادني خلصني يا شا لي لا تدعني اقتل فاختبأت وراء شجرة وبكيت بكاء شديدًا على عجزي وقصوري. ثم صمتوا وصرخ الكاهن فلانة العجوز التي اوصافها كذا وكذا سحرت امبومو ايضًا وكانت هذه امراة عائلة ابنة اخي شيخهم فلما رأتهم هاجمين عليها وقفت وقالت اني اشرب السم فلا تمدّوا ايديكم ولكن ويل لمن اتهمني ان لم امت فلعلوا بها كما فعلوا بتلك. ثم صاح الكاهن فلانة ام ستة اولاد سحرت امبومو واوصافها كذا وكذا فجرّوها الى النهر. ثم وقف الكاهن وذكر ذنب كلٍّ منهنّ فقال فلانة طلبت من امبومو ملحًا وكان الملح قليلاً فلم يعطها فدعت عليهِ فاماتتهُ بسحرها وفلانة عاقر وامبومو له اولاد ولذلك سحرتهُ وفلانة طلبت منهُ مرآةً ولم يعطها فلذلك سحرتهُ. وكان كلما ذكر ذنب واحدة منهنّ يصرخ الناس بالقذف والشتم حتى اقاربها كانوا يشتمونها ويلعنونها لئلاّ تقع التهمة عليهم ايضًا. ثم انزلوهنّ في قارب مع الكاهن والجلادين واحاط بقاربهنّ ثلاثة قوارب. وحينئذٍ باشروا الرسم وذلك ان اخا الميت أمسك قدح السم فلما رأته اخت دليلي اخذت تبكي وابنة اخي الشيخ اصفرّ وجهها خوفًا فشربنَ السم واحدة فواحدة وكان الناس يصرخون ان كنّ ساحرات فليقتلهنّ السم وان كنّ بريئات فليخرج منهنّ السم. ولما شربنَ سقطنَ واحدة فواحدة وكانت اجسادهنّ لا تلحق قعر القارب الاّ وقد تقطعت اربًا بضرب السيوف ولما مزقوهنّ كل ممزق القوهنّ في النهر وانصرف كلٌّ الى بيتهِ وقد قضى فروضهُ. وفي المساء اتى اليّ اخو الفتاة وهو لا يجسر ان يندبها جهارًا ولا ان يتظاهر بالاسف عليها فلما عزيتهُ قال ارجوك انك متى ذهبت الى بلادك تقول للناس ان يبعثوا الينا من يعلمنا كلام الله وينجينا من هذه الهلكة فوعدتهُ بذلك وها انا اتم وعدي بكتابة القصة نفسها

وتتضح تلك الطريقة ايضًا من كلام الدكتور لفنستون على اهل بلاد انكولا الخاضعة للبرتوكال قال. ان تداخل البيض في احوال اهالي افريقية هنا قلما حسن حالتهم فانهُ لا يزال يقتل عدد

غنير من الناس سنويًا بسبب الاوهام المستولية على عقولهم وحكومة البرتوكال لا تفعل شيئًا وذلك اما لانها لا تدري بهم او لا تقدر على ردعهم لانهم يخضعون للقتل سرًا اجراء لعوائدهم . فاذا اتهمت امراة بالسحر تسافر غالبًا من مقاطعة الى أخرى لتثبت براءتها بالامتحان وذلك انها تاتي الى نهر اسمه دوى بجانب قرية كاسنج وتشرب هناك نقاعة عقار سام فان ماتت قالوا كانت ساحرة وان عاشت قالوا انها بريئة . فلما كنت في قرية كاسنج اشتكى رجل على امراة اخيه انها سحرته فمرض ولما كانت متيقنة انها بريئة قالت اجر وا الرسم عليَّ فاشرب السم زاعمةً انها تنجو لبراءتها ولكن القبطان هناك منعها من ذلك ولولاهُ لهلكت لا محالة لان السم قوي جدًا فاذا تقيأته المعدة مرةً اعادوهُ اخرى فيموت الانسان . كذا يموت مئات كل سنة في وادي كاسنج . . . . ويوافق ذلك كلامهُ عن السحر في شرقي افريقية قال . ولما رجعنا من قرية الشيخ مونينا وصل كاهن الى هناك بامر مونينا وخرجت نساء مونينا ذلك اليوم الى الحقول صائمات ليجرى عليهنَّ الرسم . وذلك انهُ اذا اشتبه رجل بان نساءهُ سحرنهُ كما اشتبه مونينا يستحضر الكاهن ويصوم النساء ذلك اليوم في الحقول حتى يحضر الكاهن نقاعة السم . ثم تشرب كلٌ منهنَّ ويدها مرفوعة الى السماء شهادةً على براءتها فان تقيأت السم تحسب بريئة واذا أُسهلت بهِ تحسب ساحرة وتحرق حية واما البريئات فيذبحنَ ديوكًا شكرًا للروح الحافظ لهنَّ . وهذا شائع بين كل القبائل التي الى شمالي الزيمبي باختلاف زهيد فالبارو تسمي مثلًا يستون السم لديك او كلب عوضًا عن المتهم فاذا أُسهل الكلب او الديك كان المتهم ساحرًا واذا تقيأ كان بريئًا . وكلهم يخضعون طوعًا حالما تلقى الشبهة عليهم ويتسابقون لاظهار براءتهم . فاخبرتهم كيف كان اهل بلادي اسكوتلاندا يربطون يدي المتهمة بالسحر ورجليها ويلقونها في الماء فاذا عامت قالوا انها ساحرة واحرقوها حية واذا غرقت قالوا انها بريئة فدهشوا من حكمة اسلافي كما دهشت من فظائع عوائدهم

هذا ولا يخفى انهُ متى فتح مثل هذا الباب الواسع فلا امن يتنزع من البلاد كلها ولذلك ترى ان الافريقي يعيش على فقرهِ وضنك حالهِ معذبًا بالخاوف قلقًا بالهواجس . فالشيخ يخاف انهُ ان عاش طويلًا لا محالة الآخرون بل يقتلونهُ شرَّ قتلة بجريرة السحر كما روى دوشيلو . واصحاب السطوة يخشون ان يسحرهم غيرهم فلا يامنون البتة . قال دوشيلو بتُّ ليلةً عند شيخ قرية في افريقية اسمهُ داما كندي يزيد عن ست اقدام طولًا وهو في القتال والصيد شجاع ولكنهُ في بيتهِ اجبن الجبناء لكثرة ما استولى عليهِ من الاوهام . فلما امسى المساء ظهرت عليهِ علامات القلق والانزعاج وامر قومهُ بالسكوت ثم جعل يتمتم قائلًا انهم يطلبون ان يسحروني ليستولوا على املاكي ويأخذوا سلطاني وما زال يتذمر ويتشكى حتى افاق واسي فصحت بهِ أقلع عن هذه الاوهام فما هذا

السحر ومن هم الذين يسحرونك ان هذه كلها الاَّ خرافات . فاجابني كما كان يجيبني غيرهُ قد لا يكون السحر موجودًا عندكم واما نحن فالسحر موجود عندنا حقيقةً لاننا نعرف كثيرين سحروا وماتوا . واصحاب الهمة والعزيمة تفتر همتهم وتخل عزيمتهم عن لقاء الشدائد زعمًا انهم مسحورون وما يبدهم على السحر حيلة . قال الدكتور لفنستون نزلت في قبيلة البكتلة في قرية مبونسا وكانت الاسود تتردد عليها كثيرًا حتى صارت تهاجمها وتخطف مواشيها نهارًا . فزعم اهلها انهم مسحورون لان هجوم الاسود كان فوق المعتاد وقالوا ان جيراننا يسحروننا لنموت بيد الاسود . فقوّيت قلوبهم فتجلدوا وقصدوا قتلها ولكن لم يكن عندهم شجاعة على لقائها لتقطّع قلوبهم فيهم فرجعوا دون ان يقتلوا اسدًا

والامر واضح ان استيلاء هذه الخرافة على عقول اولئك البسطاء انما ينسب كلهُ او اكثرهُ الى نفاق كهنتهم . فانهُ لما كان الانسان مائلاً لتفضيل صالحهِ على صالح غيرهِ كان الكهان كلما سنحت لهم الفرصة يرقّون صوالحهم ولو باتلاف صوالح غيرهم كما يشهد بذلك تاريخ كل امة و بلاد . وهكذا كهنة الافريقيين لم يزالوا يتعيشون بالنفاق في امور قد انتطع منها خبز المنافقين في بلاد اخرى . قال الدكتور لفنستون كان لي صاحب وهو قبطان برتوكالي في قرية كاسنجي وامرأتهُ سوداء فمات ابنهُ بالحمّى وقبل موتهِ استحضرت امهُ كاهنًا ليقول لها ما تفعل لولدها فالفى الكاهن زهرهُ وتظاهر انهُ وقع في غيبة يخاطب الروح . ثم قال للمراة ان ابنكِ تقتلهُ روح تاجر برتوكالي كان ساكنًا هنا . والسبب في ذلك هو ان التاجر المشار اليهِ مات هناك فاشترى شركاؤهُ البرتوكاليون تركتهُ وتكفلوا بدفع اثمانها في صكوك عليهم . ولجهل الناس هناك بالكتابة وشروط البيع والشراء بها ظنوا ان البرتوكاليين سرقوا مال رفيقهم وان روحهُ تنتقل ابن القبطان فحكم الكاهن بما يوافق رايهم لان الكهنة يتبعون الراي الاعم غالبًا وقال لها ان اردتِ ان تفتدي ابنكِ فاعطني عبدًا فتكف الروح عن قتلهِ . فطلبت المرأة من زوجها عبدًا لتعطية للكاهن فدية عن ابنها وكان الكاهن لا يزال متظاهرًا بالغيبة فبعث زوجها الى جارهِ سرًا فاتى فقال اعطهِ فدية الولد ما تقدر عليهِ ذراعك فلعّب جارهُ الهراوة على ظهرهِ فافاق وولى مدبرًا . ولهولاء الكهنة مكايد اخرى كثيرة وللسحر نوادر عديدة غير ما ذُكر اضربنا عن ذكرها لضيق المقام

الشَّعر

الجلد الملتف بهِ الجسد مؤلف من طبقتين طبقة باطنة ويقال لها الأَدمة او الجلد الحقيقي